سعيد النورسي
الرباني الكردي الكبير

طارق جمباز

كل شعب يفتخر بعظمائه سواء كانوا من العلماء او الادباء او السياسيين، لان هؤلاء لا تنجبهم الشعوب الا في فترات زمنية متباعدة، لذا يصبح هؤلاء «قدوات» ليس للشعوب التي ينتمون اليها، بل للانسانية جمعاء. لأن اعمالهم الابداعية والثقافية تستفيد منها البشرية.
ونحن الكرد قدمنا ونقدم العظماء واحداً تلو الآخر، من صلاح الدين الايوبي الى احمد شوقي وقاسم امين والدكتورة سهير القلماوي ويلماز گوناى وابن المستوفي وابن خلكان وسليم بركات والشهيد الدكتور عبدالرحمن قاسملو...الخ..

وهناك شخصية فذة لم اقرأ لها إلا مؤخراً، لذا اعتبر نفسي مقصراً امام روح هذا الشخص الطاهرة،لكونه من ابناء امتي، حيث انه بمجرد ذكر اسمه يقف الناس اجلالاً واكباراً له، وذلك لكتاباته النيرة وذكائه الوقاد ومواقفه المشهورة والمشهودة في اصعب الظروف. حيث كان نبراساً فكان يخاف منه اعداؤه لعدم تنازله عن عقيدته قيد أنملة مقابل كل مغريات الحياة بكل انواعها، لذا دخل قلوب الناس بدون استئذان، وكثيراً ما حاول المغرضون النيل من اسمه والرد على كتاباته ولكنهم لم يستطيعوا، بل ان دسائسهم انكشفت، وبذلك انفضحوا امام انظار الناس، وتألق نجم(سعيد الكردي) وكان يدعو بصورة دائمة الى الحق والعدل ووقف ضد الظلم والجور والتعسف.

ـ ولد هذا العالم عام (١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م) في قرية (نورس) الصغيرة التابعة لقضاء هيزان في ولاية بدليس من ابوين كرديين، وبعد ان بلغ من العمر تسع سنوات بدأ ميله يتجه نحو طلب العلم متأثراً بتوجيهات شقيقه الكبير: الملا عبدالله فراح ينتقل بين مختلف المدارس المنتشرة في القرى والأقضية القريبة. ولم يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً حتى اصبح في عداد الفحول من العلماء، فقد اتقن في هذه الفترة جميع ما مر عليه من علوم الآلة: «علوم اللغة، والعلوم العقلية على اختلافها، وعلم الأصول والفقه، وعلوم القرآن.» وانكشفت مواهبه عن ذكاء حاد وحافظة عجيبة مذهلة، فحفظ جملة من مقامات الحريري، وحفظ قاموس المحيط الى حرف «السين» وحفظ كتاب جمع الجوامع في اصول الفقه في فترة لم تتجاوز شهراً واحداً، حتى اصبح اسمه حديث المجالس بين اهل العلم وطلابه، وسرعان ما لقب بـ (سعيد مشهور) اي (سعيد المشهور).

ـ بدأ سعيد النورسي حياته بالزهد والتقشف وسلك سلوك الفلاسفة والحكماء، ان الطريق التي اختطها سعيد النورسي لنفسه منذ فجر شبابه، وان كان الأسلام لم يلزم اهله ان يحصروا انفسهم فيه، يدل على انه كان منصرفاً بنفسه وتفكيره منذ صباه عما تنشغل به نفس كل انسان في هذه السن، وعلى ان اموراً جليلة اخرى كانت تستأثر على فكره وتشغل باله. وقد كان يتخذ من مبدأ «دع ما يريبك الى ما لا يريبك» دستوراً لحياته، فكان يسير به هذا الدستور نحو الورع والحيطة في جميع شؤونه حتى انه كثيراً ما كان يقتات الأعشاب حينما لا

يتوفر له القوت المطهر من كل ريبة.
وكان يحرص دائماً على ان يترك شيئاً من طعامه للنمل!.. فاذا سئل عن ذلك اجاب: (انها مكافأة مني لنظام هذه الأمة وجمهوريتها الرائعة. وكان شغوفاً بطول الاقامة عند قبر الشيخ احمد الخاني الشاعر الكردي المشهور. رغم الوحشة المحيطة حول القبر.

- وفي ١٨٩٢م ذهب «الملا سعيد» الى مدينة (ماردين) وفي سنة (١٨٩٤)م ذهب الى مدينة (وان) وانكب فيها بعمق على دراسة كتب الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) والفلسفة الحديثة والتأريخ والجغرافية حتى تعمق فيها الى درجة أفهام الأساتذة المختصين فسمي لأول مرة بـ (بديع الزمان) اعترافاً من اهل العلم بذكائه الحاد وعلمه الغزير.

- وفي سنة ١٩٠٧ ذهب مرة اخرى الى اسطنبول، يسرد العالم التركي السيد (حسن فهمي باش اوغلو) ذكرياته عن لقائه به فيقول: «عندما جاء شاب يدعى بديع الزمان الى اسطنبول كنت ادرس في مدرسة «الفاتح» وسمعت انه علق لوحة على باب غرفته يقول ما معناه «هنا يحل كل امر معقد ويجاب عن كل سؤال ولكنه لا يسأل احداً» وفي احدى الأمسيات اخترت من الكتب التي تبحث عن الالهيات بعض الموضوعات المعقدة التي لا يمكن الأجابة عليها الا بمجلدات من الكتب. وفي اليوم التالي ذهبت لزيارته ووجهت اليه الأسئلة وقد كانت اجوبته عجيبة وخارقة ومدهشة، اذ أجابني وكأنه كان معي بالأمس ينظر الى تلك الكتب، فاصبحت موقناً ومطمئناً ان علمه ليس كسبياً كعلمنا بل هو علم لدنى. ولحماسته الشديدة في عرض رأيه وجرأته على محاسبة السلطان احالته حاشيته بعد خروجه الى طبيب الامراض العقلية للتأكد من سلامة عقله، فكتب الطبيب المختص ضمن تقريره «لو كانت هنالك ذرة واحدة من الجنون عند بديع الزمان فمعنى ذلك انه لا يوجد على وجه الأرض كلها عاقل واحد».
وعلى اثر ذلك يرسل بديع الزمان الى وزارة الداخلية حيث يقابله الوزير وتجري بينهما المحاورة التالية:
الوزير: ان السلطان يخصك بالسلام مع مرتب بمبلغ الف قرش، وعندما تعود الى بلدك يجعل مرتبك ثلاثين ليرة، كما أرسل لك ثمانين ليرة كهدية سلطانية لك.
بديع الزمان: لم اكن ابداً متسول مرتب، ولن اقبله ولو كان الف ليرة، لأنني لم آت لغرض شخصي، وانما لمصلحة البلد، فما تعرضونه علي ليس سوى رشوة السكوت.
الوزير: انك بهذا ترد الارادة السلطانية والارادة لا ترد.
بديع الزمان: انني ارد لكي يستاء السلطان ويستدعيني، عند ذلك استطيع ان اقول له قولة الحق.
الوزير: ان العاقبة تكون غير سارة.
بديع الزمان: تعددت الأسباب والموت واحد، فلئن أعدم فسوف ارقد في قلب الأمة، علماً انني عندما جئت الى اسطنبول كنت واضعاً روحي على كفي، اعملوا ما شئتم، فاني اعني ما اقول: انني اريد ان اوقظ ابناء الأمة واقوم بهذا العمل لأنني فرد من هذا البلد لا لأقتطف من ورائه مرتباً، لأن خدمة رجل مثلي للدولة لا تكون الا باسداء النصائح وهذه لا تتم الا بحسن تأثيرها، وهذا لا يتم الا بترك المصالح الشخصية فانني معذور اذن عندما ارفض المرتب.
الوزير: ان ما ترمي اليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسة في مجلس الوزراء حالياً.
بديع الزمان: اذن فلم يتأخر نشر المعارف ويستعجل في امر المرتب؟
لماذا تؤثرون منفعتي الشخصية على المنفعة العامة للأمة؟
- وفي اسلانبك طلب اليهودي المشهور «عمانوئيل قرهصو» رئيس المحفل الماسوني وعضو مجلس المبعوثان (النواب) العثماني مقابلته طمعاً في التأثير عليه وجره الى صفه باعتباره شخصية مشهورة، وقد قبل مقابلته، ولكن ما لبث ان خرج اليهودي من عنده قائلاً: لقد كاد هذا الرجل العجيب ان يزجني بحديثه في الأسلام، ومن المعروف في التأريخ العثماني الحديث ان قرهصو هو اول صهيوني ماسوني عمل على قلب الخلافة وخلع السلطان عبدالحميد.
- وفي سنة ١٩١١ زار بلاد الشام وألقى محاضرة علمية بليغة في الجامع الأموي.

- وفي سنة ١٩١٢؟ وقبيل نشوب (حرب البلقان) عين بديع الزمان قائداً للقوات الفدائية التي تشكلت من المتطوعين المسلمين القادمين من شرقي الأناضول اي الأكراد، وعلى الرغم من معارضة النورس لدخول الدولة العثمانية في الحرب، الا انه ما ان اعلنت حتى اشترك هو وتلاميذه الثلاثمائة في مدرسته في الحرب ضد روسيا التي هاجمت من جهة القفقاس، وعندما دخل الجيش الروسي مدينة (تبليس) دافع هو وتلامذته عن المدينة دفاعاً مستميتاً، حتى جرح جرحاً بليغاً واسر من قبل الروس واخذ الى شرقي روسيا.

وفي الأسر وقعت له حادثة كادت ان تؤدي به الى الأعدام وتفصيلها هو كمايلي:

كان خال القيصر والقائد العام للجبهة الروسية «نيقولا نيقولافج» يزور الأسرى فقام جميع الأسرى لأداء التحية ما عدا سعيد النورسي، لاحظ القائد العام ذلك، فرجع ومرّ ثانية امامه فلم يقم له كذلك، وفي المرة الثالثة وقف امامه وجرت بينهما المحاورة الآتية بواسطة المترجم:

ـ الظاهر انك لم تعرفني.

ـ بلى... لقد عرفتك، انك نيقولا نيقولافچ، خال القيصر والقائد العام في جبهة القفقاس.

ـ اذن فلم تستهين بي؟

ـ كلا انني لم اهن احداً وانما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

ـ وماذا تأمرك عقيدتك؟

ـ انني عالم مسلم، احمل في قلبي ايماناً، فالذي يحمل في قلبه ايماناً هو افضل من الذي لا إيمان له، ولو انني قمت لك لكنت اذن قليل الأحترام لعقيدتي، ومقدساتي، لذلك فانني لم اقم لك.

ـ اذن فانك باطلاقك علي صفة عدم الايمان تكون قد اهنتني واهنت جيشي وأمتي والقيصر كذلك، فيجب تشكيل محكمة عسكرية للنظر في هذا الأمر، فتشكلت المحكمة العسكرية وقدم اليها سعيد النورس بتهمة اهانة القيصر والأمة الروسية والجيش الروسي. ويسود حزن عميق في معسكر الأسرى. ويلتف حوله الضباط الأسرى من الأتراك والألمان والنمساويين ملحين عليه القيام بالاعتذار للقائد الروسي وطلب العفو منه. الا انه رفض باصرار قائلاً لهم: انني ارغب في الرحيل الى الآخرة والمثول بين يدى رسول الله (صلعم) لذلك فإنني بحاجة فقط الى جواز سفر للآخرة وانا لا استطيع ان اتحمل ما يخالف ايماني.

وتصدر المحكمة قرارها باعدام النورسي، وفي يوم التنفيذ تحضر ثلة من الجنود وعلى راسها ضابط روسي لأخذه الى ساحة الاعدام، ويقوم النورسي من مكانه بابتهاج قائلاً للضابط الروسي: «ارجو ان تسمح لي قليلاً لأوادي واجبي الأخير (فيقوم ويتوضأ ويصلي ركعتين) ويؤثر هذا المنظر الرهيب في نفس القائد العام الروسي الذي كان واقفاً يراقب الأمر عن كثب، فيتقدم الى النورسي ويقول له بعد فراغه من صلاته: «ارجو منك المعذرة، كنت اظنك قد قمت بعملك قاصداً إهانتي ولكنني واثق الآن انك كنت تنفذ ما تأمرك به عقيدتك وايمانك، لذا فقد ابطلت قرار المحكمة وانني اهنؤك على صلابتك في عقيدتك وأرجو المعذرة مرة اخرى.

وبعد ان مكث سعيد النورسي في الأسر حوالي سنتين ونصف، عانى كثيراً من الوحدة والوحشة والغربة، هرب منه باعجوبة اثر قيام الثورة على القيصرية، فوصل الى المانيا ماراً بوارشو وڤينا، ثم عاد الى اسطنبول فعين عضواً في دار الحكمة الأسلامية سنة ١٩١٨، كانت عضوية الدار يومئذٍ لا توجه الا الى كبار العلماء. وكان احد أسباب ترشيح النورسي هو اطلاعه الواسع على علم الحديث النبوي. وقد خصصت له الحكومة راتباً كبيراً، كان يأخذ منه قدر حاجته وما يتبقى منه يطبع به كتبه ورسائله الاسلامية فيوزعها مجاناً على الناس.

كان الاستاذ النورسي يلف منديلاً أبيض على رأسه كما هو زي علماء الكورد في شمال العراق، وما كان يلبس العمامة المعهودة لدى الأئمة والخطباء، وظل محتفظاً بزيه طوال حياته.

ـ قبيل اندلاع ثورة (الشيخ سعيد پيران) ارسل الشيخ سعيد الى الأستاذ النورسي حسين باشا رئيس احدى العشائر الكوردية كي يستطلع رأيه حول تلك الثورة والأشتراك فيها، وكما توقع النورسي فقد اخفقت حركة الشيخ سعيد لأنها لم تنطلق من الوعي الأسلامي الشامل والأعداد الكامل وكانت نتيجتها وخيمة.

ـ وعلى الرغم من انه لم ينج من السجن والتشريد والنفي الا ان اسلوبه قد نجح الى حد بعيد، ولو ان باحثاً منصفاً تابع تطور الحياة في تركيا من النصف الثاني للقرن الماضي لرأى بان خطة النورسي اتت ثمرتها اليانعة.

ـ ويعتقد النورسي بأن تجديد المجتمعات الأسلامية يحتاج الى تبني «التكنولوجيه» الحديثة مع المحافظة على القيم الذاتية،

فينبغي اتخـاذ اليابان قدوة في هذا المجال حيث انهم اخذوا الكثير من الحضارة الغربية واحتفظوا ايضاً بمقوماتهم القومية.

ـ للشيخ النورسي مؤلفات عديدة باللغتين التركية والعربية ولقد ساعدت دراساته العقلية الرصينة واطلاعه الواسع على تطور العلم الحـديث في محـاولة ذلك الأنقاذ، فبدأ بتاليف الرسائل والكتب في دحض شبهات القوم واثبات حقائق الأيمان باسلوب علمي عصري قريب الى روح العصر وفهم الناس جميعاً.

وكـان يتتبع الشبهات التي كان يثيرها الملاحدة واعداء الأمة لأدخال الشك في عقول الجيل الحديث، فيرد عليها ويخصص لها الرسائل المتنوعة دون ذكر الشبهة الا نادراً.

ومن هنا فاننا نرى ان كتابات النورسي تمثل الصراع الفكري في عصره تمثيلاً تاماً وتضع الأسس الفكرية لتنشئة جيل مؤمن يعرف كيف يتعامل مع العصر.

ولقد اكد النورسي في كتاباته على قضايا العقيدة، لا سيما وجود الله ووحدانيته واليوم الآخر وما يتعلق به من الأمور الغيبية.

حول رسائل النور سئل الاستاذ سعيد الكوردي فاجاب:

لو كان مولانا (جلال الدين الرومي) في هذا العصر لكتب «رسائل النـور» ولو كنت انا في ذلك العصر لكتبت (المثنوي) ذلك لأن خدمـة الأيمان والقرآن في عصره كانت على ذلك النمط اي بـ (المثنوي) واما الآن فان الخدمة على منهج رسائل النور.

ـ وظل الأستاذ نشيطاً في توجيه وتربية تلاميذه النور، يكتب له ويرشدهم ويشرف على طبع رسائله وكتبه حتى وفاته في الخامس والعشرين من رمضان ١٣٧٩هـ والموافق للثالث والعشرين من آذار سنـة ١٩٦٠م. جاء قاضي التـركـات وبدأ يثبت ما ورثه الأستاذ فكان: ساعة وسجاد ولفاف الرأس، وجبة، فاعطي كلها لأخيه عبدالمجيد. وظلت الجنازة في تلك الليلة في الجامع، وما ان تنفس الصبح حتى اصبح الازدحام في (اورفه) شديداً جداً، حيث جاء النـاس من كل انحـاء تركيا، وقرأ الجميع الختمة القرآنية حتى الصباح واهدوا ثوابها الى روح الاستاذ الفقيد.

وبعد مرور خمسة اشهر على وفاة الأستاذ (سعيد النورسي) نقل رفاته، حيث دفن في مكان لا يزال مجهولاً.

كرامات الأستاذ (سعيد النورسي)

ان متابعة حوادث الكرامات لدى الأستاذ مردها انتشار الأخبار حول حوادث خارقة جرت عليه وهو في سجن (اسكي شهر) سنة ١٩٣٥ نورد منها ما يلي:

ـ ما يرويه المدعي العام: انه يشاهد يوماً الأستاذ في السوق، فيندهش من حيرته ويتصل بمدير السجن مباشرة ويهدده بقوله: كيف سمحتم لبديع الزمان بالخروج الى السوق، فقد شاهدته بنفسي في السوق، ويجيبه المدير: عفواً سيدي ان بديع الزمان في السجن ويمكنكم التفضل لرؤيته في السجن الانفرادي، ويأتي المـدعي العـام، ويزوران معاً الزنزانة، واذا بالأستاذ موجود هناك. فتنتشر هذه الحادثة في اوساط الناس.

ـ وحـادثة اخرى مشابهة يرويها مدير سجن اسكي شهر انـذاك وخـلاصتهـا: يطرق سمعه صوت بديع الزمان طالباً الخروج من السجن الى صلاة الجمعة في (آق جامع) فيزور زنزانته وقت الصلاة، فاذا ببديع الزمان غير موجود، والحراس كلهم في مواضعهم، والأقفـال على الأبواب، فيسرع المدير الى الجامع المذكور ويرى الأستاذ في الصف الأمامي وعلى اليمين، ويبحث عنـه بعد الصلاة فلا يجده، ويعود الى السجن فوراً، فيراه يكبر «الله اكبر» ويستغرق في السجود، ورويت حوادث اخرى من رؤية الأستاذ مراراً في صلاة الفجر عندما كان في سجن (دنيزكا)، وهذه الأخبار كلها جاءت على لسان مسؤولين كانوا يعادون الأستاذ وليسوا من محبيه.

ـ يروي (ملا حميد افندي) هذه الخاطرة:

«كنت معتكفـاً في جامـع (قـاضي اوغلو) ورأيت في الرؤيـا ان الأستاذ يقول لي: عليك بحضور جنازتي والقيام بغسلي، لأني سأموت.

قلت له: انه لا يجوز للمعتكف الخروج من الأعتكاف يا استاذي فماذا اعمل؟ قال: انظر الى صفحة كذا في كتاب (ملتقى الأبحر) فهنـاك ترى الجـواز. ولما استيقظت من النوم، اخذت الكتاب المـذكور بسرعة وانا بعد تحت تأثير الرؤيا، وفتحت الصفحة نفسها التي اشار اليها الأستاذ. وعلى هذا فقد نلت شرف غسل جنازته.

المصادر:

١ ـ النورسي الرائد الأسلامي الكبير، تأليف محسن عبدالحميد ١٩٨٧.

٢ ـ ذكريات عن سعيد النورسي، ترجمة السيد احسان قاسم ١٩٨٦.

٣ ـ من الفكر والقلب (فصول من النقد في العلوم والاجتماع والآداب) د. محمد سعيد البوطي ١٩٧٢

الهوامش:

١ ـ من ابرز مؤلفات الشاعر (احمد خاني) قصة «مم وزين» وقد ترجمها الى العربية منثوراً الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

٢ ـ اشتهـر النـورسي بتأليف رسائل في موضوعات العقيدة الأسلامية كليـاتها وجزئياتها، سماها «رسائل النور» ويتجاوز عددها مائة وثلاثين رسالة باللغة التركية.